آسية الهاشمي البلغيتي

ذو الوزارتين
وزير المعتمد بن عباد ووزير يوسف بن تاشفين

ابن القصيرة
حياته وأدبه

1419هـ - 1998م

الإهداء

إلى الحبيبين الغائبين

إلى من ألهماني سر الحياة وكنه الوجود...

إلى من كانا ولا زالا وسيبقيان ما بقيت: مثلي الاعلى، ونموذجي المحتدى...

إلى ينبوع الفضيلة والتقى، وفيض الحب والعطاء... امي الحبيبة الفقيدة.

إلى رمز النبل والشهامة والكرم، ونبع الاريحية، ابي العزيز الفقيد.

إلى من تعاهدا على الحب والوفاء.

إلى ان ماتا معا، ودفنا معا...

إليهما معا اهدي صفو قريحتي، وخلجات النفس وكوامن اغوار مشاعرها وتفاعلها ومعاناتها واستجاباتها تجاه جميع مجالات الحياة وعلى جميع الجبهات والاصعدة مستمطرة عليهما شآبيب الرحمة والرضوان، داعية الباري جلت قدرته ان يسكنهما فسيح جناته في مقام صدق مع « النبيئين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن اولئك رفيقا » آمـــــين.

آسية الهاشمي البلغيثي

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

مقـــدمـــة

منذ نشأتي والاحلام تداعب مخيلتي بأن أكون أديبة ومؤلفة. ولم يكن لي أي إلمام بأسرار هذا الفن غير أني كنت أجد نفسي كلما طرح علي سؤال حول ما أفضل أن أكونه الا واجيب على الفور: أديبة.

ومرت الأيام، وتقاذفتني ظروف الحياة -شأن جميع الناس-، غير أني ظللت متمسكة بطلب العلم، مؤمنة أنه السبيل الوحيد لتحقيق أمنيتي، ومنطلقة من مشاعري الذاتية نحو ممارسة أمتع هواية وأحبها إلى نفسي: التعلم والتثقيف والبحث والتنقيب...

وبعد مجهودات مضنية جاء اليوم الذي طالما تاقت نفسي إليه، واصبح لي بل علي ان اعد موضوع بحث ادبي كنواة اولى لاعمالي الادبية المقبلة -بحول الله- وكانطلاقة اولية نحو الميدان الذي طالما منيت نفسي بولوجه.

لكنني -والحق يقال- وقفت حائرة أمام مجرد اختيار موضوع لبحثي. وأظنها مرحلة طبيعية يمر منها كل مبتدئ في هذا الميدان الذي يتطلب نفسا طويلا، وإعمالا للفكر لمدة طويلة يعايش فيها الاثار الادبية ويستقريها متتبعا ما يتصل بموضوعه منها، مستوحيا إياها، مسجلا انطباعاته وأحكامه عليها...

غير أن حيرتي لم تدم إذ ما ان اطلقت العنان لعواطفي ومشاعري لتهديني الى احب المجالات الادبية الى نفسي، حتى قفز الى ذهني مجال قريب الى قلبي، غامض فيّ ذهني، الا وهو الادب الاندلسي.

ذلك انه بقدر ما كنت أتجاوب مع أدب هذا العصر، وأجد لذة عظيمة في دراسة آثاره الشعرية والنثرية -ممزوجة بمرارة الحسرة على تلك الديار الشهيدة، وبالفخر بما خلفه سلفنا المجيد فيها من آثار أدبية وعمرانية-. قلت بقدر هذا التجاوب بقدر ما كنت اتساءل وترتفع أمامي علامات استفهام كبيرة عن حقيقة الاحداث التي شهدتها تلك البقاع العزيزة، وحقيقة المكانة الحضارية التي تبوأتها في تلك العصور الغابرة، وحقيقة الدور الذي قامت به كل دولة في بناء صرح تلك الحضارة العربية التي لازالت آثارها الخالدة شاهدة على عظمتها تنافس الدهر البقاء.

ذلك ان ما كتب في هذا المجال -رغم كثرته- لا يخضع للنزاهة في شيء، فهو اما من طرف مستشرقين مغرضين يدسون السم في الدسم، ويسيرون في ركب الحملات الصليبية، أو من طرف شرقيين متأثرين بالعصبية الممقوتة التي كانت على اشدها -اذ ذاك- بين الشرق والغرب الاسلاميين، أو بعبارة اصح بين العرب والبربر، أو بالنزعات المحلية والانظمة السياسية -وخاصة اذا تعرضوا لعصر الدولة المغربية المرابطية بتلك الربوع الشهيدة- أو من طرف أندلسيين عاشوا في الفترة التي كان فيها الوجود العربي بالاندلس يلفظ انفاسه الاخيرة على اعتاب غرناطة، فكان كل منهم موتورا من هذا الامير أو ذاك، او مضطهدا من ذلك النظام او تلك الدولة في ماضيه، فعبر عن سخطه الخاص -الذي امتزج بتمرده وسخطه العام على أوضاعه وأوضاع بلده وقلقه على مصيره ومصير أمته- بجلاء ووضوح، بدليل تناقض كتبهم في تناول الموضوع الواحد وسرد الحادثة نفسها، رغم معاصرة بعضهم لبعض كالتناقض بين الذخيرة وقلائد العقيان، وبين غيرها من المؤلفات التي عرفتها تلك الفترة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية.

وكان ذلك يحز في نفسي واتوق لمعرفة الحقيقة، فاتيه بين هذا المرجع وذاك، وسرعان ما تنطمس أمامي معالمها، أو لعلها كانت تطفو حينا وترسب أحيانا...

وإذا كانت الشعوبية والعصبية والاغراض الشخصية والحروب والاهوال قد لعبت هذا الدور الخطير في طمس معالم الحقيقة التاريخية والادبية لتلك البقاع الغالية، فقد وجدت -في اختيار موضوع الادب الاندلسي مجالا لبحثي-، فرصة سانحة أقف بواسطتها على الحقيقة التي طالما نشدتها، ثم أعمل على صقلها وبلورتها واخراجها للوجود في قالب جديد متوخية النزاهة العلمية، هادفة لخدمة العلم بمجهودي المتواضع البسيط، بعد التحليل والتعليل، وايراد الاسباب والمسببات، واستلهام المعطيات...

غير أنني ما ان قر قراري على اتخاذ الادب الاندلسي ميدانا لبحثي ومرتعا لقلمي حتى بليت بالحيرة ثانية، فما هو الجانب -بالضبط- من هذا الادب الذي سأضعه على محك بحثي، واستقصيه دراسة وتحليلا؟ فموضوعي البسيط لن يتسع، ولن يستوعب شتات ذلك العصر الزاخر الذي يتطلب مجلدات ضخمة، ما اعجزني اليوم عنها وابعدني عن استقصائها.

وانقذني من حيرتي هذه المرة اتصالي بأستاذنا الجليل الدكتور عبد السلام الهراس -الذي اعددت بحثي[1] تحت اشرافه الرشيد، وتوجيهاته السامية- وذلك حينما أعطاني

---

(1) بحث لنيل شهادة الإجازة في الأدب العربي سنة 1975 م.

مجموعة من الاسماء لشخصيات أدبية عاصرت مختلف عصور الوجود العربي الاسلامي في ربوع الاندلس، تاركا لي حرية اختيار احداها.

وبعد دراستي لها جميعها على -سبيل الانتقاء-، وقع اختياري على ذى الوزارتين ابي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الكلاعي الولبي.

ولعل قائلا يقول: لماذا ابن القصيرة بالذات؟ وفي الجواب على هذا السؤال أرى من الاليق ان استعرض الاسباب التي أغرتني بالكتابة حول هذه الشخصية بالذات وهي عديدة وأهمها:

1- ان ابن القصيرة شخصية ذات وزن وبال في تاريخ الاندلس السياسي والادبي...

2- انه رغم مكانته السياسية والادبية لم يتناوله -لحد الساعة- احد الباحثين بالدراسة الخاصة المفصلة.

وإذا كان يحلو لغيري أن يختار الشخصيات البارزة المطروقة فأنا ممن يفضل الكتابة في موضوع جديد، لانفض عنه غبار العصور التاريخية التي تعاقبت عليه وهو في زوايا النسيان. وظل الاهمال.

3- انه مخضرم -ان صح التعبير- فهو قد عاصر دولتين من ابرز الدول التي حكمت في الاندلس وعاش في اكنافهما مدة معينة من حياته الصاخبة بل انه تولى الوزارة لكل منهما: الدولة العبادية باشبيلية، والدولة المرابطية في الاندلس كلها. كما كان شاهد عيان لموقعة الزلاقة الفاصلة التي تعتبر غرة في جبين تاريخنا المجيد.

4- وهو من جهة أخرى، خاض غمار تلك الفترة الحاسمة في تاريخ الاندلس السياسي والادبي التي تضاربت فيها أقوال الباحثين، فتفرقوا في شأنها طرائق قددا فضرب كل منهم على وتره وغنى كل منهم بلحنه، فابدوا واعادوا. وهي بالضبط تلك الفترة التي كانت غامضة في ذهني، وأثارت فضولي، فاردت تسليط اضواء الحقيقة عليها.

لهذه الاسباب الرئيسية -ولاسباب أخرى ثانوية فرعية-، ارتايت دراسة علم من اعلام الادب الاندلسي في فترة تعتبر من أدق الفترات لاستراتيجيتها التاريخية والادبية.

هذا وقبل الخوض في البحث أو الحديث عن هذا الاديب رأيت ان اتي بعجالة تاريخية وجغرافية عن الاندلس، محاولة فيها التعريف بالبيئة المحلية التى انجبته، واحتضنته، ثم ألهمته، اذ لا يجهل احد اليوم مدى تأثير البيئة الطبيعية والاجتماعية في الاديب.

وبعد ذلك اتناول بشيء من التفصيل العصرين اللذين عاصرهما ابن القصيرة، واسهم في سياستهما وأدبهما بنصيب وافر: عصر ملوك الطوائف وخاصة الدولة العبادية

وعصر المرابطين، محاولة الاختصار ما أمكن فيما يتعلق بالجانب السياسي، جانحة الى التفصيل ما استطعت فيما يرجع للجانب الادبي. اذ من الصعب الفصل بين الجانبين. فكل منهما يؤثر في الاخر بل ان التاريخ الادبي دائما يدور في فلك التاريخ السياسي فيزدهر بازدهاره وينحط بانحطاطه، اللهم في أحوال شاذة "والشاذ لا حكم له" وذلك ما طبع الموضوع بطابع تاريخي، خاصة وان المراجع التي اعتمدتها في بحثي جلها تاريخي "والرجوع الى الأصل أصل".

وفي حديثي عن ابن القصيرة، ساركز على ما يتعلق بالأديب نفسه، مبتدئة بحياته وأدبه من شعر ونثر، مقسمة هذا الأخير إلى مرحلتين: ما كتبه عن المعتمد بن عباد، وما كتبه عن يوسف بن تاشفين، للفرق الواضح والبون الشاسع بينهما، مما يعتبر تطورا كبيرا في أدب ابن القصيرة، اقتضاه ذلك التطور الكبير الذي خضعت له البلاد في جميع ميادين الحياة: السياسية والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والحضارية...

وسأركز دراستي بالخصوص على أهمها وأكثرها ارتباطا بالموضوع، كوصفه لمعركة الزلاقة في رسالة ديوانية سلطانية عن المعتمد بن عباد الى ولده وولي عهده ونائبه على اشبيلية أثناء غيبته بالموقعة.

وهكذا سأبتدئ بالديوانية عن المعتمد بن عباد ثم بها عن يوسف بن تاشفين، ثم بالعهود والوثائق، لأختم دراسة نثره برسائله الاخوانية، محاولة في كل ذلك تلخيص الاحداث، والقاء نظرة على أدب ابن القصيرة، ومعرفة مدى تأثره بالاتجاهات المختلفة المعروفة في الشرق والغرب، ومدى انعكاسها على أدبه، والى أي حد تأثر بغيره، ومدى تقليده وتجديده، مبرزة سماته المميزة له عن غيره من معاصريه وسابقيه ولاحقيه، لأصل إلى حكم أخير عليه، محاولة إبداء ارهاصات حول ما استنتجته من مطالعاتي وتنقيباتي، تكون خلاصة لبحثي هذا الذي أضعه بكل تواضع بين يدي أستاذي الجليل، راجية أن يكون عند حسن ظنه، وأن أكون قد وفقت في السير على نهجه القويم، والاهتداء بتوجيهاته وإرشاداته الغالية والسعي على دربه العتيد-في المستقبل بحول الله- إنه نعم المولى ونعم النصير.

آسية الهاشمي البلغيثي

تمهيد

الأندلس

تقع الاندلس في الزاوية الجنوبية الغربية من أوربا، وهي عبارة عن شبه جزيرة كبيرة تفصلها عن فرنسا شمالا سلسلة جبال البرانس، وعن افريقيا جنوبا مضيق جبل طارق، ويحدها غربا المحيط الأطلسي -الذي سماه العرب بحر الظلمات- أما شرقا فيحدها بحر الروم[1].

وأطلق العرب اسم الاندلس على جميع البلاد الاسبانية التي فتحوها، ولعل أصل التسمية ان القندال عند دخولهم اسبانيا - في القرن الخامس الميلادي- سمو المرفأ الذي ابحروا منه باسمهم (قندلس)، ولما جاء العرب حرفوه الى اندلس واطلقوه على البلاد كلها، ثم اقصروه على ما فتحوه منها[2]، وحتى يومنا هذا يسمى الاقليم الجنوبي من اسبانيا اندلسيا .

واجمل ما فيها انهارها المنسابة المنحدرة من سلاسل جبالها المشهورة الى المحيط الأطلسي، ونحو البحر الأ بيض المتوسط.

ولحسن موقعها الجغرافي واستراتيجيتها الطبيعية و جمالها الساحر وخصوبتها، كانت محط اطماع الفاتحين والغزاة عبر التاريخ. فقد غزتها قبل العرب امم كثيرة كقبائل البسك والسلت، والجلالقة من بلاد الغال، ثم البربر من إفريقيا الشمالية، ثم الفنيقيين، -وذلك قبل الميلاد بقرون-، ولما كان القرن الثالث الميلادي[3] غزاها الرومان، وأصبحت ولاية رومانية فسموها إسبانبا، وتأثرت بروما لغويا ودينيا، ثم غزاها القندال من الشمال، في القرن الخامس الميلادي [4] وأسسوا مملكتهم على الوادي الكبير، ثم غزاها القوط، فخيم في عهدهم على البلاد ظلام حالك، وخبا نور الثقافة الرومانية.

أما اليوم فأصبحت الاندلس كلمة تخفق القلوب، وتخشع النفوس وتطأطأ الرؤوس لذكرها في البلاد الإسلامية شرقا وغربا، لأنها مبعث لشعور الافتخار والعظمة بالماضي المجيد، ومثار لشعور المرارة والحسرة على ذلك الفردوس المفقود الذي تقلص عنه ظل الاسلام بعد أن ظل فيه هدى للناس قرونا وأجيالا، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

(1) والبحر الابيض المتوسط.

(2) في الأدب الاندلسي ص 9.

(3) الفن ومذاهبه في الشعر ص 410.

(4) الفن ومذاهبه في النثر ص 410.

الحياة السياسية في عصر ملوك الطوائف والمرابطين:

مما لا جدال فيه أن الأديب وليد بيئته الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، فهذه جميعا تؤثر فيه وفي انتاجه الى أبعد حد، وهذا ما نادى به الناقد العربي الكبير القاضي أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجاني الذي كان أول من قعد النقد العربي، ووضع له أسسا وقوانين منذ القرن الرابع الهجري، وأثار في دراساته قضية تأثير البيئة في الأديب وأدبه بوضوح. وهي من القضايا النقدية الرئيسية التي تتبناها الدراسات المعاصرة في جميع الاداب في الشرق والغرب والتي جاءت مصدقة لما بين يديها من اراء القاضي الجرجاني الصائبة.

وانطلاقا من إيماننا العميق بكل هذا، علينا قبل أن نتطرق للحديث عن أبى بكر بن القصيرة ان نرجع خطوات إلى الوراء، الى القرن الخامس الهجري، وإلى اشبيلية، بل الى ولبة بالضبط التي أنجبت هذا الاديب الفذ الذي ترعرع بين أحضان طبيعتها الزاهية التي "جمعت بين البر والبحر، والزرع والضرع ، والنخل والنتاج، وأجناس التمار، وكثرة الزيتون والأعناب، وارضها يجود فيها العصفر، ويوجد في بحرها القندس، وفيها عين تشبعت بالشب، وعين تتدفق بالزاج" [1].

هذه الطبيعة الساحرة المتنوعة الغنية كان لها فعل السحر فى الهامة، فتفتحت مواهبه، وتفتق ذهنه، وتنبهت عواطفه ومشاعره، فجعلت منه أديبا موهوبا مطبوعا.

وبعد أن شب عن الطوق، وبرزت استعداداته الادبية، اسلمته ولبة إلى اشبيلية التي تلقفته باعتزاز وترحيب، فارضعته البانها، وصقلت مواهبه، وشحذت عزيمته، كما سحرته طبيعتها السافرة الباسمة، واستهواه نهرها الكبير الجبار، وبهرته آثارها الخالدة، وحدائقها الرائعة فإذا هو شاعر فحل لا يجاري، وكاتب مفلق مطبوع...

وكانت اشبيلية تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، وكانت تسمى اسباليس Hespalys فتحت سنة 712م [2]، وظل بها المسلمون الى سنة 1248م [3]، وتسمى بحق (رومة الصغيرة) شيدت في العصر الوسيط، واسمها من أصل ايبوى فنيقي، وفضائلها أجملها الشقندى في قوله: "فمن محاسنها: اعتدال هوائها، وحسن المباني، وتزيين الداخل والخارج، وتمكن التمصر، تقول العامة: "لو طلب لبن الطير فيها وجد" ويقول أيضا: "وجعلها الله أم

---

(1) المغرب في حلى المغرب ص 339

(2) في بعض المصادر الاسبانية سنة 711.

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 245

قرى الاندلس، ومركز فخرها وعلاها، فهي أكبر مدنها وأعظم امصارها[1] "ويلخص لنا كل هذا احد الوشاحين في قوله:

اشبيلية عروس وبعلها عباد تاجها الشرق وسلكها الواد

فهي تمثل بصدق تقدم العمران الاسلامي في الاندلس الذي تتجلى عظمته وعظمتها في مئذنة الخيرالدا. وكما انجبت ابن القيصرة في القرن الخامس الهجري، انجبت كثيرا من العظماء عبر مختلف العصور، نذكر على سبيل المثال: دون خوان ابن الملوك الكاتوليك، ورسام الحقيقة دييجوتيلاتكيت، وفي كاتدرائيتها توجد بقايا كريستوف كولومبوس، وبها توفى فاتح المكسيك هرنان كورستين، وفيها يرقد جثمانه، ومن مفاخرها أيضا أن قصة دون كيخوته دي لامانتا[2] ولدت في أحد سجونها. وقد خير أحد من راى مصر والشام بينها وبينهما فقال: مفضلا إياها: "وشرقها غابة بلا أسد، ونهرها نيل بلا تمساح، وقد سمعت عن جبال الرحمة بخارجها... وما من جميع ما ذكرت في هذه البلدة الشريفة الا وقصدي به العبارة عن فضائل جميع الاندلس"[3]

بعد هذه التوطئة عن المدينة التي تلقفت ابن القصيرة، والبيئة الطبيعية التي الهبت مشاعره، فطبعته بطابعها، وطبعت ادبه بخصائصها، لابد لنا ان نتعرف على العوامل السياسية التي كونت شخصيته، فجعلت منه ذلك الدبلوماسي الكبير، وعلى الاجواء والملابسات الادبية التي تمخضت عنه وخلقت منه ذلك العالم الاديب.

لقد انتهت الدولة الاموية بالاندلس -كما ينتهي كل شيء في هذا العالم-، وغاصت في زوايا التاريخ، لنقائصها وغطرسه حكامها، واطماع الولاة، وانحلال اخلاق الشعب. فبعد ان زالت يد المنصور الحديدية، وسقطت حكومته الاستبدادية، قامت في الاندلس حروب أهلية قلصت ظل الخلافة فأصبحت تعيش تحت سيطرة الاجناد.

وقد خرجت البلاد من هذه الفتن والحروب مقسمة الى ما يزيد على عشرين مملكة، لكن سرعان ما ابتلع القوي منها الضعيف -الذي لم يقوعوده على تحمل الاعاصير- فسقط وسط العواصف. فبعد معارك ضاربة بين مختلف النزعات والاهواء تكونت في الاندلس اربع دول رئيسية غلبت باقي الدول أو حالفتها.

---

(1) نفح الطيب المجلد الثالث ص 198 .

(2) للكاتب الاسباني الكبير سربانطيس

(3) نفع الطيب جـ 4 ص 198.

ففي مالقة: حزب افريقي مغربي ادريسي يتمثل في بني حمود الذين حالفهم أمير غرناطة وقرمونه وحكموا في شمال المغرب: سبتة واملياية وطنجة.

وفي اشبيلية: بنو عباد الذين تغلبوا بالحرب والخديعة على كل الامراء جنوب غرب اسبانيا، وحالفهم أمير قرطبة وبطليوس.

وفي طليطلة: بنو ذي النون الاقوياء الذين حالوا دون استيلاء العباديين على سائر الاندلس، وحكموا اواسط اسبانيا.

اما في بليسنية ومرسية، فنجد بني عامر، وكانوا اضعف قوة واقل استقلالا.

وبين هؤلاء تصارعت أهواء رؤساء المسلمين وتضاربت مصالحهم، فتقارعوا تارة بالسيف والسنان، وأخرى بالقلم وسحر البيان، فكم تنافسوا سياسيا، فتسابقوا في بناء الحصون والقلاع، وكان منهم من خطب لبنى امية بعد انقراض دولتهم، ومن دعا لبني العباس رغم بعدهم، ومنهم من داخله الغرور وتطاول فتلقب بالقاب الخلفاء: كالمعتضد والمعتمد مما دعا بعض الشعراء للسخرية بهم في قوله:

مما يزهدني في ارض اندلس اسماء معتضد فيها ومعتمد
القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صورة الاسد

ودام حكم ملوك الطوائف نحوا من سبعين سنة -أثناء المائة الخامسة للهجرة-، فأصبحت البلاد -كما قال نيكلوس- شبيهة بايطاليا في القرن الخامس عشر، وملوكها كأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم في إيطاليا اسم [1] Condotture.

وهنا سأترك ملوك الطوائف لحالهم لاحصر نطاق دراستي في إطار بني عباد، أعظم دول الطوائف، وأكثرها علاقة بأديبنا ابن القصيرة الذي عاش في بلاطها وتقلب في نعيمها، وقام على شؤونها، وشارك في أدبها. قال أبو نصر: "هذه بقية منتهاها في لخم ومرتماها الى مفخر ضخم وجدهم المنذر بن ماء السماء [2] " وقال الفتح بن خاقان: " وجدهم المنذر بن ماء السماء ومطلعهم في جو تلك السماء والقاضي أبو القاسم جدهم هو الذي اقتضى لهم الملك، وجاء بعده ابنه المعتضد ثم المعتمد". [3] واشتهر منهم اسماعيل بن عباد، فعينه المنصور قاضيا باشبيلية، وبعد انقراض الخلافة، ظل قاضيا يدعي الامانة

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 55

(2) البيان المغرب ج 3 ص 284

(3) نفح الطيب المجلد الخامس ص 375

للخلافة، وقام بالحكم احسن قيام الى ان ضعف بصره، فولى ابنه ابا القاسم القضاء، واقتصر هو على مشيخة البلاد الى ان توفى سنة 414هـ، فخلفه ابنه ابو القاسم محمد، فضبط الأمور، وساس البلاد، وأطاعه أهلها، فخرجوا عن طاعة القاسم بن حمود وأغلقوا في وجهه أبواب اشبيلية.

وبذلك انفرد ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد بالبلاد، وساسها بحزم، حتى تفوق على سائر ملوك الطوائف، ومما يشهد بدهائه السياسي في محاربته لبني حمود، احياؤه لهشام بن الحكم والدعوة له حتى سايره أهل قرطبة. قال ابن القطان: "وقد خاطب هشام المؤيد المزعوم الناس من وراء حجاب قائلا: انه سير حجابته الى ابن عياد، وشهد عليه بذلك الشهود والخاصة وأرباب الدولة، ومن ابى منهم ان يشهد حاق به البلاء". ولما مات سنة 431 هـ، خلفه ابنه عباد فتكنى بابي عمرو، وتلقب بالمعتضد بالله، واستولى على غرب الاندلس، وعين به عماله، وتوفى سنة 461 هـ من علة الذبحة. قال فيه ابن حيان ما معناه: "زعيم ثوار الاندلس في وقته... ذو الانباء البديعة، والحوادث الشنيعة [1] .... ومما يشهد بصرامته وبطشه تلك الرؤوس التي اورثها ابنه المعتمد في جوالقها قال ابن بسام: "لما افتتح المرابطون اشبيلية وخلع المعتمد، حدثت انه وجدت له جوالق مطبوع عليها، فظن ذلك مالا وذخيرة، فإذا هو مملوء رؤوسا، فاعظم ذلك وهاله أمره، ودفع كل رأس منها الى من كان بقي من عقبهم بالحضرة" [2]

فقد حارب المعتضد جل ملوك الطوائف ومحا اسمهم من الوجود، وضم مملكتهم اليه متخذا كل وسيلة لذلك من غدر وخيانة، بل لم يتورع حتى عن قتل ولده بيده حين عصاه في غزو قرطبة 449 هـ، وفي الحين استدعى ولده محمد من ولاية شلب، وجعله حاجبه، فلم يلبث ان خلفه في الحكم بعد موته سنة 461هـ. قال ابن خلكان: "المعتمد على الله ابو القاسم محمد بن المعتضد بالله من ولد النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة" [3]. وقد سار سيرة أبيه مع باقي ملوك الطوائف فغدر بعبد الملك بن جهور، واستولى على قرطبة فصار "صاحب قرطبة واشبيلية وماوالاهما من جزيرة الاندلس" [4] وفيه قال أحد الشعراء:

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الاولاد

---

(1) البيان المغرب جـ 3 ص 207
(2) البيان المغرب ج 3 ص 206
(3) وفيات الاعيان ج 5 ص 686
(4) وفيات الاعيان ج 5 ص 686

وفي عهده كان الفونسو بن فرذلند، -ملك النصارى بالاندلس- قد عظم أمره، حتى صار ملوك الاندلس يرهبونه ويؤدون له الجزية، فلما أخذ طليطلة سنة 478 هـ، داخله الطمع وأعماه الغرور، فطغى وتجبر. وكان المعتمد أكبر ملوك الطوائف، وكان يؤدي الضريبة لالفونسو فامتنع عن أخذها منه بعد استيلائه على طليطلة، قال صاحب الروض المعطار: "لما اشتغل المعتمد بغزو ابن صمادح صاحب المرية، تأخر عن دفع الضريبة لاذفونش، فاستشاط الطاغية غضبا، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التجني، فطلب ان تلد زوجته القميظية في جامع قرطبة، على ان تنزل في الزهراء [1] فضرب المعتمد الرسول وقتل رفاقه، ولما علم الفونسو بذلك -وهو متوجه لحصار قرطبة- عاد الى طليطلة لاخذ آلات الحصار.

وأخذ الفقهاء ينظرون بقلق الى الحالة التي تردت اليها البلاد، وافاق ملوك الطوائف من غفلتهم فادركوا ان عليهم اما ان يسلموا البلاد او يستعينوا بإخوانهم الاقوياء، وايد الشعب الحل الثاني، ونادى به الفقهاء الذين عقدوا مؤتمرا لهم ودرسوا الوضع الخطير في البلاد فاختاروا يوسف بن تاشفين واجتمع رايهم على مكاتبته، فنزل الامراء عن رأيهم مرغمين فقد اجتمع القاضي عبد الله بن محمد بن ادهم بالمعتمد، واخبره بما انتهى اليه رايهم فقال له: تمضى اليه بنفسك" فامتنع، ولما الزمه قال: استخير الله سبحانه، وكتب في الحال الى يوسف بن تاشفين -ملك الملثمين بمراكش- يصف له حالة البلاد الخطرة. وما ان وصله حتى قصد سبتة حيث تلقاه القاضي ووفده، وكان ضمنه ابن زيدون.

وبعد مفاوضات -اشترط يوسف بن تاشفين اخلاء الجزيرة الخضراء له ليتخذها معسكرا لجيشه وانتظارهم حتى يفتح سبتة وطنجة. وظل بسبتة حتى عبرت جيوشه للجزيرة، فعبر في اثرها سنة 479 هـ، بعد ان دعا ربه. وما ان وصل حتى صلى وتسلم قلعة الجزيرة، فاستقبله الفرسان والقضاة، واجتمع بالمعتمد على رأس جيش أهل الاندلس، وانظم اليهما عدد من المسلمين من كل البلاد طلبا للجهاد، وخرج اليهم الفونسو من طليطلة في أربعين ألف فارس، -غير ما انضم اليه من دعاة الصليبيين-، بعد أن كتب إلى يوسف ابن تاشفين: "أما بعد، فانت اليوم أمير المسلمين ببلاد المغرب وسلطانهم، وأهل الاندلس ضعفوا عن مقاومتي ومقابلتي... فاما ان تجوز الي، واما أن ترسل المراكب أجوز اليك" [2].

---

(1) نفح الطيب المجلد السادس ص 90

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 233.

فلم يأبه به يوسف، ورفض أن يجيبه بكتاب مطول -كتبه كاتب الجبهة المتحدة ابن القصيرة-، واكتفى بأن كتب جوابه على ظهر كتاب الفونسو هذا نصه: "من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الى ادفونس، اما بعد، فإن الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه باذنك، والسلام على من اتبع الهدى" [1] فارتاع الفونسو وقال: "هذا رجل عازم" وسار الجيشان حتى احواز بطليوس في سهل الزلاقة -حيث يفصل بينهما نهر صغير (حجير)- فارسل يوسف الى الفونسو يخيره بين الاسلام أو الجزية او الحرب، ويخبره انه عبر اليه بنفسه ليوفر عليه عناء ذلك، فغضب الفونسو والقى بكتابه الى الارض، وأرسل يحدد يوم القتال بالاثنين، واضمر الغدر والهجوم يوم الجمعة، ولم تنطل حيلته على المسلمين، فارسل المعتمد عيونه لمراقبة معسكره، كما بات يوسف على اتم استعداد فنقل معسكره أثناء الليل، وما أن جاءه سفير المعتمد ابن القصيرة -معلنا تحرك النصارى، وطالبا البدار-، حتى وجده على اهبه كاملة.

ودهش النصارى حين التقوا بفرسان المرابطين بقيادة ابن عائشة في طليعة جيش المعتمد الذين حطموا الخط الامامي لجيش الاعداء، وردوهم لخط دفاعهم الثاني. لكن سرعان ما انكشف جيش الاندلس وولى الادبار ولاذ بالفرار والاعتصام بأسوار بطليوس [2] ولم يثبت مع المعتمد غير فرسان ابن عائشة، فوقع الفونسو في الخطأ الذي أراده له يوسف، وظن أنه انتصر ولم ير جيش يوسف -المختبئ وراء الاكمة- الذي وثب للميدان في الوقت المناسب، فاقتحم محلات العدو.

وهكذا تعاقبت الكرات بين المحلات، وتم النصر للمسلمين، واتم الله نعمته عليهم، وضمت رؤوس 9000 من قتلاهم الى بعضها واتخذت صوامع اذن عليها المؤذن.

وكان انتصار يوسف انتصارا عزيزا مؤزرا مسوما، وغنم مالا يحصى من دواب وسلاح واسرى، بينما هرب الفونسو مجروحا في شرذمة من عساكره، يجر أذيال هزيمته النكراء، وذلك يوم الجمعة منتصف رجب سنة 479 هـ موافق 26 أكتوبر 1086 م. [3]

وقد ارسلت كتب النصر من إنشاء ابن القصيرة مع رؤوس القتلى لتقرأ على منابر المساجد في المغرب والاندلس، كما تبارى شعراء العصر في مدح يوسف والاعتراف بفضله على الاسلام والمسلمين، وفي الاستهزاء بالفونسو كابن عبد الجليل بن وهبون في قوله:

---

(1) المغرب في العصر الوسيط القسم الثالث ص 234

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 243

(3) وفيات الاعيان ج 5 ص 29.

فـأين العـجب يا اذفـونش هلا تجنبت المشـيـخـة يا غـلام
سـتـسـألك النسـاء ولا رجـال فـخـبـر مـا وراءك يا عـصـام

ومنها في مدح يوسف:

فـثـار الى الطعـان حليف صـدق تثـور به الحـفـيظة والذمـام
وصـار فـوق ظهـر الارض ارضـا كـان وهادها فـيـه ركـام
فـان ينجـو اللعين فـلا كـحـر ولكن مـثل مـا ينجـو اللئـام

وبعد هذا الفتح المبين، رجع الامير يوسف الى المغرب، متعففا عن الغنائم كلها، تاركا إياها لملوك الطوائف. وما ان سوى مشاكله الداخلية في المغرب، حتى عاد الى الاندلس لمتابعة الجهاد مع ملوك الطوائف الذين استاسد عليهم الفونسو بعد ان لم شعته وجمع انصاره من جديد.

لكنه -بعد حصار حصن بليط-، تبين له بوضوح سوء نية ملوك الطوائف، ومدى جشاعة المعتمد واستغلاله اياه في مصالحه الخاصة، وداخله الناس في شأنهم، ودست اليه السعايات بهم، وشاهد انغماسهم في الملذات، واهمالهم لمصالح الرعية، وتحاسدهم وتباغضهم، فغير سياسته ومخططه، وأنهى الجبهة المتحدة، وعزم على خلعهم وضم البلاد الى مملكته ليتسنى له محاربة النصارى دون خذلانهم، واستفتى العلماء والفقهاء فافتوا بأحقية عمله لإنقاذ الاسلام والمسلمين، وأصدر هذه الفتوى ابو جعفر-قاضي الجماعة بغرناطة- وصادق عليها علماء وفقهاء المغرب، وتوجها تاييد كبير علماء الشرق وحجة الاسلام، الامام الغزالي، وابو بكر الطرطوشي.

واسند يوسف مهمة الاطاحة بعروشهم الواهية لقائده وابن عمه سير بن أبي بكر الذي طوح بهم واحدا تلو الآخر مبتدئا بابن بلكين في غرناطة، ومنتهيا بالمعتمد في اشبيلية.

وهكذا قبض على المعتمد فقيد، "ثم جمع هو وأهله، وحملتهم الجواري المنشات، وضمتهم كأنهم أموات بعد ان ضاق عنهم القصر، وراق منهم العصر، والناس قد حشروا بضفتي الوادي" [1] ويقول الفتح بن خاقان: "وكر عليه الدهر وهو مستمسك بعرف لذاته، منغمس فيها بذاته، ملقى بين جواريه مبعثر بودائع ملكه وعواريه التي استرجعت منه في يومه، ونبهه فواتها من نومه". [2]

---

(1) وفيات الاعيان ج 5 ص 30

(2) قلائد العقيان ص 23.

ولما حمل وأهله الى يوسف بمراكش، أمر به الى أغمات، فلم يخرج منها حتى مات في ذي الحجة 488 هـ وأمر ان يكتب على قبره:

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقا ظفرت باشلاء ابن عباد

وهكذا انتهى عصر ملوك الطوائف، كما انتهت حياة ابن عباد الذي ولد سنة 431 هـ بمدينة باجة وتوفي بسجن اغمات، وعبرة لمن يعتبر نودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظيم سلطانه وجلالة قدره، ووقف على قبره لرثائه شعراء طالما قصدوه بمدائحهم فاجزل لهم العطاء، وعلى رأسهم ابن بحر عبد الصمد في قوله:

ملك الملوك اسامع فانادي ام قد عدتك عن السماع عوادي

ثم قبل الثرى ومرغ جسمه وعفر خده، فبكى وابكى كل من حضر.

وبعد ان اسدل الستار الى الابد على عصر ملوك الطوائف بما فيه من حوادث وخطوب ودسائس وحروب. بدأ عهد الدولة المرابطية الفتية الزاهر. إذ ما ان أطاح يوسف بعروش ملوك الطوائف حتى استولى على العدوتين، وتواصلت هزائم النصارى على يده، فاستولى على الجنوب. واحس بخطر القمبياطور في الشرق الذي تزعم معركة الاسترداد -بعد ان تخلى عنها الفونسو الذي مني بهزائم متوالية مع المرابطين- فلم يلبث ان أرسل قائده ابن عائشة الى بلنسية كنجدة ثانية لقاضيها ابن جحاف لكنها وصلت بعد فوات الاوان، وبعد تسليم بلنسية، واحراق ابن جحاف والتنكيل بالسكان،.فاعد يوسف حملة هائلة لاسترجاعها سنة 495 هـ [1] بقيادة محمد بن الحاج، الذي انزل بالنصارى هزائم ساحقة، وقتل ابن القمبياطور الوحيد، وهزم البرهانس.

أما المعركة الفاصلة فقاد حملتها قائده الاعظم محمد بن مزدلى الذي أعاد بلنسية إلى حظيرة البلاد، فكانت معركة لا تقل أهمية عن الزلاقة، خلدها الشعراء والكتاب. وبسقوط بلنسية انهارت جبهة النصارى، وتوثقت الصلة بين المرابطين وبني هود بسرقسطة على حدود النصارى فصدوا القوات الصليبية واوقفوها عند نهر الابيرو، وايدوا يوسف فغفر لهم ما تقدم من مواقفهم الاولى، بل ظل يمدهم بالعون ليردوا عادية العدو، ويوقفوا سيله العارم ويصدوا تياره.

---

(1) البيان المغرب ج 3 ص 306

وما أن انتصر المرابطون في الشرق -بعد الجنوب- حتى توجهوا الى قشتالة بالشمال وكبدوا الفونسو خسائر فادحة، اذ لم يذق طعم النصر في أية معركة منذ الزلاقة واتحاد المسلمين تحت راية يوسف المرابطي. (1)

وكان آخر عبور ليوسف الى الاندلس سنة 497 هـ متوجا بأكاليل النصر، تخفق اعلامه وبنوده في ربوع البلاد، شاعرا بالرضى لرسوخ اقدام الاسلام في شبه الجزيرة، فرأى ان يأخذ البيعة لولده علي بقرطبة بعد ان أخذها له بالمغرب، وتولى كتابة عهده -الذي سنأتي على دراسته مع بقية اثاره- كاتبه الملازم لركابه ابو بكر بن القصيرة.

وعاد يوسف الى المغرب سنة 498 هـ حيث مرض وتوفى في محرم سنة 500 في المائة من عمره، (2) ولم يقدر له أن يرى نهاية عدوه الفونسو بل جنى ثمار نضاله -طيلة عشرين سنة-، ولده علي بن يوسف، حيث هزم الفونسو عند (اقليص)، وقتل ولده واهم رجاله فلم يلبث ان مات هو -غما وكمدا- بعد عام واحد. وبموته فقدت حركة الاسترجاع بطليها القمبياطور والفونسو.

وإذا كان علي بن يوسف قد اتم رسالة أبيه وحقق آماله في الميدان السياسي والحربي، فإنه في الميدان الأدبي قد احتفظ بكاتبه ابن القيصرة على رأس ديوانه حتى أواخر أيام حياته، -رغم كبر سنه- لكفاءته ومهارته. فقد "اشتملت عليه الدول الثلاث: العبادية والمعتمدية والدولة اليوسفية وهذه الدولة العلوية". (3)

الحياة الثقافية في عصر الطوائف والمرابطين

إذا نحن تركنا عصر ابن القصيرة السياسي -بماله وما عليه- الى عصره الأدبي، وجب علينا أن نتجرد عن جميع النزعات والاهواء، ونترك العواطف والمشاعر الخاصة، ونبتعد كلية عن المحلية والاقليمية الضيقة، إذ من الانصاف لملوك الطوائف أن نذكر رعايتهم للحركة الادبية حتى كانت عواصمهم أسواقا لها، بل كان منهم أدباء وشعراء كملكي بطليوس والمعتضد والمعتمد ملكي اشبيلية، وكان أكثرهم يجالس العلماء والادباء والفلاسفة ويحاضرهم، فقطعت العلوم والاداب والفنون أشواطا بعيدة المدى في تلك الفترة التي تعتبر بحق من ازهى عصور الاندلس، كون فيها الفن الاسلامي العربي حلقة من اروع حلقات الفنون في القرون الوسطى.

---

(1) قيام الدولة المرابطية ص 321

(2) المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث ص 252

(3) البيان المغرب ج 4 ص 60.

وهكذا وجدت الحركة العلمية والادبية نصيرها في هؤلاء الملوك، لان فرار العلماء من قرطبة أثناء الفتن سبب تعميم المعرفة ونشرها في أطراف البلاد لأنهم تفرقوا في المدن والقوى، فنشروا علمهم في كل مكان. وكان نتيجة الحرية الواسعة التي منحها ملوك الطوائف للرعايا أن أقبل الناس على الفلسفة والرياضيات بلا تكتم ولا تحفظ، بدليل قول صاعد الاندلسي:

"فالحال بحمد الله أفضل....في اباحة تلك العلوم والاعراض عن تحجر طلبها: [1] فعصر الطوائف لم يتقدم له نظير في تاريخ الادب الثقافي، إذ خصب الانتاج في سائر فروع المعرفة، وخاصة الادب الانشائي من نثر وشعر. فقد تهيأت لاهل الاندلس أسباب الشعر، فانطلقت به السنتهم، وزادت طبيعة بلادهم وأحوال عصرهم في تاجج عواطفهم، فأقبل عليه النساء والرجال، وصار الشعر عندهم الدعامة الاولى للثقافة، يتدارسونه مع القرآن الكريم، فطبعوا على قوله وشغفوا به، لكن حياة الشاعر في بلاطهم لم تختلف عن حياة شعراء الشرق فهو عبد صنعته وسيده، لذا لم يجدد ولم يعط شعرا صادق العاطفة مما نجده عند الشاعر الشخصي الذاتي الذي ترك شيطانه طوع قلبه وعاطفته ومواهبه ولم يخضعه للمال أو السلطان". ويضيق المقام عند تفصيل القول في جميع ملوك الطوائف، لذا سأقتصر في هذه العجالة على تبسيطه في أشهرهم وما امتازوا به في ميادين الثقافة والفكر والادب والفن:

كبني هود الذين كانوا هم أنفسهم فلاسفة وعلماء، وعاش في ظلهم بسرقسطة فلاسفة كابن جبرون وابن باجة، والطرطوشي.

وكان بنو ذي النون -وهم من برابرة هوارة- من انصار العلم والادب، فازدحم قصرهم بالعلماء كابراهيم بن يحيى النقاش عالم الفلك، ومحمد بن بصال، والنحوى الوقاش، واحمد بن مغيث صاحب كتاب المقنع.

وفي بطليوس احتلت الثقافة والادب مركزا أساسيا بفضل بني الافطس -من قبائل مكناسة- إذ خدم بلاطهم ابن عبد البر القرطبي الفقيه المحدث، ورثاهم ابن عبدون بقصيدته الشهيرة:

ويكفي بني جهور في قرطبة فخرا نشأة ابن حزم في اكنافهم، الذي قال عنه بلاسوس: "ان ابن حزم بتأليفه "كتاب الملل والنحل" قد سبق علماء اوربا بقرون، لان تاريخ

---

(1) الادب الاندلسي ج 1 ص 56.

الديانات لم يظهر فيها الا في القرن التاسع عشر" ومن نبغاء قرطبة في بلاطهم ابو الوليد ابن زيدون، وابو مروان بن حيان، صاحب كتاب" المشين " في ستين مجلدا.

وكان بنو طاهر، وبنو صمادح، في بلنسية ومرسية والمرية، شعراء وأدباء، وفي ظلهم نجد الوزير ابن عباس، وابن عبادة، وابن شهير، وفي اكناف بني صمادح نبغ البكرى في الجغرافية، وفي بلنسية ابن خفاجة، والنحوى اللغوي ابو الحسن على بن اسماعيل صاحب كتاب "المخصص".

ونجد على رأس ملوك الطوائف بني عباد بإشبيلية (414- 484 هـ) إذ كانوا يتزعمون الحركة الادبية، بل كان جلهم أدباء وشعراء -كما تزعموا السياسة- فاجتمع في بلاطهم بإشبيلية وقرطبة، مالم يجتمع لغيرهم من الشعراء والكتاب المتفننين في النظم والنثر، كذى الوزارتين الاديب الكبير والفقيه الجليل والكاتب البارع ابن القصيرة، وعبد الجبار بن حمديس الصقلي، وأشهر شعرائهم ابن زيدون، وابن اللبانة، وابن وهبون، وابن عمارة، وعلى رأسهم ملكهم المعتمد بن عباد. والواقع اننا لا نجد وصفا لهذه الدولة اصدق من وصف الشقندى: " وان كان كل ملوك الاندلس... قد تنازعوا في ملاءة الحضر فإني أخص منهم بني عباد... فإن الايام لم تزل بهم كأعياد، وكان لهم من الحنو على الادب مالم يقم به بنو حمدان في حلب، وكانوا هم وبنوهم ووزراؤهم صدورا في بلاغتي النظم والنثر مشاركين في فنون العلم... وقد خلدوا من المكارم التامة، ماهو متردد على السنة الخاصة والعامة." [1] ولا غروفهم احفاد المناذرة، المعروفين بتقريب الادباء والشعراء كالنابغة وحسان.

ومن أشهر ملوكهم الشعراء المعتضد، قال الحميري: "كان ابو عمرو عباد صاحب اشبيلية من أهل الادب البارع، والشعر الرائع، وقد رأيت له سفرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه فمن شعره قوله:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة كالتبر اما نجارها فضخم واما جسمها فدقيق

---

(1) نفح الطيب ج 2 ص 128.

وكان ابنه المعتمد اشعرال عباد واكثرهم رعاية وتقريبا للعلماء والادباء، وأجودهم مع الشعراء، فأكثروا من مدحه، وكان هو يمثل الشاعر الاندلسي احسن تمثيل، وصور شعره مراحل حياته أدق تصوير، فجاء تعبيره أفصح، وعاطفته أصدق، فان وجدنا غزلا هادئا، وحبا صادقا، ففي المرحلة الاولى من حياته كقوله:

فتكت مقلتاه بالقلب منى وبكت مقلتاى شوقا اليه
فحكى لحظه لنا سيف عبا د ولحظى له سحاب يديه

وإذا وجدنا له فخرا وحماسة أو رثاء ففي المرحلة الثانية منها، وإذا رأينا بكاء وحسرة على الماضي، ففي المرحلة الثالثة والاخيرة من حياته كقوله:

قبح الدهر فماذا صنعا كلما أعطى نفسا نزعا

ومما يدل على ازدهار الحركة الادبية في دولته مشاركة المرأة فيها مشاركة فعالة، سواء بجمالها الذي حرك نفوس الشعراء للغزل والنسيب، أو بإنتاجها كالمشرقية إلا أنها اسبانية أو أوربية وليست فارسية او رومية. وقد تعلمت النساء في الاندلس الادب والفن على يد الجواري الوافدات من الشرق ممن علمهن زريات كعايدة، وفضل، وقمر اللواتي علمهن الاندلسيات والادب والغناء والالحان، مما اثمر جيلا اندلسيا أديبا في هذا العهد، كاعتماد الرميكية جاريته، وابنته بثينة، وغيرهما ممن ساهمن في ازدهار الحركة الادبية في هذا العهد قال ابن القطان عن المعتمد: "إنه اندى ملوك الاندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثمادا، وارفعهم عمادا". [1] وان رواج الشعر زمن ملوك الطوائف عموما، وبنى عباد خصوصا لانجد له شبيها حتى في الشرق الاسلامي، فهو ظاهرة وطنية، ساعدتها ظروف المحيط السياسية والاجتماعية والطبيعية، فقالوا في كل الاغراض، ولاسيما شعر الطبيعة الذي امتازوا فيه على العالمين، لجمال الاندلس وبهائها قال المقري: "إن محاسن الاندلس لا تستوفي بعبارة" لذلك تعلق بها الاندلسيون، واقبل الشعراء على وصف مباهجها حتى راوها جنة كابن خفاجة في قوله:

يا أهل أندلس لله دركم ماء وظل وأشجار وانهار
ما جنة الخلد الا في دياركم ولو خيرت هذى كنت اختار

(1) أعمال الاعلام ج 3 ص 189.

ومما زاد في ازدهار شعر الطبيعة الحياة اللاهية التي عاشها الشعراء، فصوروا اللهو والحب والخمو في إطار الطبيعة.

وحق في أعناقنا للمعتمد، ان نوفيه ما يستحقه من المدح والثناء والتعظيم والتبجيل -ونحن ندرس عصره من الناحية الادبية- لكننا انصافا لابن تاشفين، وخدمة للحقيقة التاريخة والعلمية نقول: ان مواقفه السياسية لم تكن مشرفة، فهو لم يستدع يوسف الا اضطرارا وتحت ضغط الفقهاء والعلماء، ورضوخا للارادة الشعبية واجماع الامة، ثم انه اراد استغلال يوسف لمصلحته الخاصة، والتخلص منه نهائيا، ولما غلب على امره لم يتورع عن استدعاء الفونسو ومالاته ضده، يقول ابن الخطيب "ولما ضاق به الامر جدد مراسلة سلطان النصارى يستصرخ به ويطمعه، فكانت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون، وعند ذلك يئس ابن عباد وأيقن بالغلبة". (1)

ومما يؤكد لنا أنه لم يحضر الزلاقة الى جانب يوسف قلبا وقالبا، انه رغم شاعريته الوقادة لم يقل فيها ولو بيتا واحدا، بينما نجده يملأ الدنيا شعرا حين نكب في نفسه وملكه، وثكل في بنيه وصبت عليه المصائب صبا فقد قال بمجرد خلعه:

قالوا الخضوع سياسة ... فليبد منك لهم خضوع
والذ من طعم الخضوع ... على فمي السم النقيع

وقال أيضا:

انباء اسرك قد طبقن آفاقا ... بل قد عممن جهات الارض اقلاقا
فاحرق الفجع أكبادا وأفئدة ... واغرق الدمع اماقا واحداقا

وقصده الشعراء وهو أسير فقال:

سالوا العسير من الاسير انه ... بسؤالهم لاحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزة لخمية ... طى الحشا ساواهم في المطلب

وكما أثار اسره كوامن عواطفه أثار عواطف الشعراء حسرة عليه لأنه كان مصدر رزقهم ومحط آمالهم كابن اللبانة الذي سطر حياة المعتمد في شعره فيمكن اتخاذه مرجعا لهم.

---

(1) أعمال الاعلام ج 3 ص 189.